الباب الرابع

الحياءُ في ضوءِ القرآنِ العظيم

الفصل الأول : دلائلُ الحياءِ في آي القرآن

الفصل الثاني : معنىٰ الحياءِ في حق الله عز وجل

الفصل الثالث : اللهُ الحييُّ

الفصل الأول

دلائلُ الحياءِ في آي القُرآنِ

مادةُ « حيي » من الموادِ التي كثُرت اشتقاقاتُها في كتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، فقد وردت في (٤٨) صيغة توزعتْ في آياتِ القرآنِ الكريمِ بين سُورِه المكيّة والمدنيّة ، حيث وردت (١٠٨مرات) ، ومنها اشتقاق الحياء الذي وردَ في تسعةِ مواضع ، وفي خمسِ صيغ ، وهو مدار تعليقنا في هذا الفصلِ الكريمِ الطيبِ بإذن الله .

ـ جاءت الصِّيغُ الخمسُ بلفظ : نستحيي ، يستحيون ، يستحيي ، استحيوا ، استحياء .

ـ وجاءت كلمة : استحيى ، واستحياء ، على معنيين :

أ ـ الاستحياء الذي هو منَ الحياءِ ، بمعنىٰ الخجل

والاحتشام وفعله لازم . والاستحياءُ المسندُ إلىٰ اللهِ معناهُ ترك الفعل .

ب ـ استحياهُ استحياءً : أبقى حياته وتركَ قتله ، وفعله متعدٍّ .

ـ وسنعرض المعاني السّابقة فيما يلي حسب معانيها في القرآن الكريم ، لتتوضحَ معالمُ الحياءِ وصُورهِ في الأذهان ، ولتنقش آثاره في القلوب ، ليكون خلُقاً وسلوكاً لنا .

ـ فلفظ نستحي : جاء في قولهِ عَزَّ وجَلَّ في قصةِ فرعون : ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] .

وتعني هنا أن فرعون قال : نبقي حياتهنّ ، ونتركُ قتلهنّ ، ونستبقي نساءهم للاستخدام كما كنّا نفعل به .

ـ وذكر السّعدي في تفسيره معنىٰ هذه الآية فقال : نستبقيهنّ فلا نقتلهن ، فإذا فعلنا ذلك ، أمنّا كثرتهم ، وكنّا مستخدمين لباقيهم ، ومسخرين لهم علىٰ ما نشاءُ من الأعمال[1] .

---

(١) تفسير السعدي (ص ٢٦٣) مؤسسة الرسالة ط ١ ١٩٩٦م .

ـ وجاءت لفظة يستحيون في مواضع ثلاثةٍ بمعنىٰ بقاء الحياة ، قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٩] . و [الأعراف : ١٤١] . و [إبراهيم : ٦] . والمعنىٰ هنا يبقون حياتهن فلا يقتلونهنّ .

ـ وأما لفظ يستحيي فقد ورد في مواضعَ أربعة ، في ثلاثة منها ورد بمعنىٰ الحياء ؛ ومرة بمعنىٰ الحياة .

ـ ففي معنىٰ الحياء ، جاء اللفظ في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] . والمعنىٰ هنا من الحياء ، ويُرادُ به أنَّه لا يتركُ ضربَ المثل .

ـ وفي قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . وهو هنا من الحياء ، بمعنىٰ الخجل والاحتشام .

ـ وفي قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . من الحياء ، ويُراد به أنَّه لا يترك تقرير الحق .

ـ أما قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ [القصص : ٤] . فالمعنىٰ هنا من الحياة ؛ أي يبقي حياتهنّ .

ـ وجاءت لفظة استحيوا من الإحياء وإبقاء الحياة في قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ [غافر : ٢٥] .

ـ أما لفظة استحياء فقد جاءت بمعنىٰ الحياء والخجل والاحتشام في وصف فتاة مدين في قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص : ٢٥] . ومشية هذه المرأة علىٰ هذهِ الصورة دليلٌ علىٰ أخلاقها الحسان ، إذ الحياءُ منَ الأخلاقِ الفاضلةِ ، وخصوصاً من النّساء .

* * *

الفصل الثاني

معنىٰ الحياء في حقِّ الله عَزَّ وجَلَّ

وردتْ معاني الحياء مقترنةً بلفظِ الجلالةِ في أكثرَ من موضعٍ في كتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، فكيفَ يكونُ معنىٰ الحياءِ في حقِّ اللهِ وكيفَ نفهمه ؟!

ـ ولكي تتوضحَ الصورة نقرأُ قولهُ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[1] [البقرة : ٢٦] .

---

(١) أوضحَ سليمانُ بن عمر العُجيلي الشهيرُ بالجملِ في كتابه الفتوحات الإلهية في شرحه وتعليقه علىٰ هذه الآية ما مفاده فقال :

يستحيي : بياءين : أولاهما : عين الكلمة ؛ والثانية : لامها ؛ والحاء : فاؤها . =

فالمناسبةُ هنا تقتضي أنَّ القرآنَ العظيمَ هو كلام الله ، لا يتطرأ إليه شك ، أو شبهة ؛ وهو كتابٌ معجزٌ فيه بيانُ الإعجاز ، وإعجازُ البيان ، أنزله ربّ العالمين على محمد

= وقد ورد حيي واستحيا بمعنى واحد . والمشهور استحيا يستحيي ومُستحيىٰ منه من غير حذف . وقد جاء استحىٰ يستحي ، فهو مستحٍ ؛ مثل : استقىٰ يستقي ، فقد قرىء به .

والحياء لغة : تَغيُّرٌ وانكسار يعتري الإنسانَ من خوف ما يُعاب به ، واشتقاقه من الحياة .

ومعناه علىٰ ما قاله الزمخشري : نقصت حياته واعتلت مجازاً . واستعماله هنا في حق الله تعالىٰ عن الترك .

وجعله الزمخشري من باب المقابلة ؛ يعني أنَّ الكفار لما قالوا : أما يستحي رب محمد أن يضربَ المثل بالمحقرات ، قُوبل قولهم ذلك بقوله : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ ﴾ [البقرة : ٢٦] ويضرب معناه : يُبين فيتعدىٰ لواحد . وقيل معناه : التصيير : فيتعدىٰ لاثنين نحو : ضربتُ الطين لبناً . وقال بعضهم : لا يتعدىٰ لاثنين إلا مع المثل خاصة . (الفتوحات الإلهية ١/ ٥٢ و ٥٣) مختصراً . دار الفكر طبعة ١٩٩٤ م .

خاتم الأنبياء والمرسلين ، وتحدّاهم أنْ يأتوا بمثل سورة من أقصر سوره ، وذكر هنا شبهةً أوردها الكفّار للقدحِ فيه ، وهي أنَّه جاء في القرآنِ الكريم ذِكرُ : النحل ، الذباب ، العنكبوت ، النّمل ، . . الخ . . . وهذه الأمور لا يليقُ ذكرها بكلام الفصحاء ، فضلاً عن كلامِ ربِّ العالمين ؛ فأجابَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عن هذهِ الشبهة ، وردّ عليهم بأنَّ صغر هذهِ الأشياء لا يقدحُ في فصاحة القرآن ، ولا في إعجازه ، إذا كان ذِكرُ المثل مشتملاً علىٰ حكمٍ بالغةٍ .

ـ قال الزمخشري : أي لا يتركُ ضربَ المثل بالبعوضةِ ترك من يستحيي من ذكرها لحقارتها[1] .

ـ وأما سببُ نزولِ هذه الآيةِ ، فيقولُ العلماءُ : لما ذكرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ الذُّباب والعنكبوت في كتابه ، وضربَ للمشركينَ بهِ المثل ، ضحكت اليهودُ وقالوا : ما يشبه هذا كلام اللهِ وما أرادَ بذكرِ هذه الأشياء الخسيسة ؟! ؛ فأنزلَ اللهُ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) الكشاف (١/ ٨٥) .

لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة : ٢٦] .

ـ وذكرَ الواحديُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ الحسنَ وقتادةَ قالا : لما ذكرَ اللهُ الذبابَ والعنكبوتَ في كتابهِ ، وضربَ للمشركين به المثلَ ، ضحكتِ اليهودُ ، وقالوا : ما يشبهُ هذا كلامَ اللهِ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآية .

ـ وذكر الواحديُّ عن ابنِ عبّاس في قوله تعالىٰ : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة : ٢٦] . قال : وذلك أنَّ اللهَ ذكرَ آلهةَ المشركين فقال : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ [الحج : ٧٣] . وذكرَ كيدَ الآلهة فجعله كبيتِ العنكبوت ، فقالوا : أرأيتَ حيثُ ذكرَ الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن علىٰ محمد ، أي شيء يصنع بهذا ، فأنزلَ اللهُ هذه الآية[1] .

ـ والمعنىٰ كما ذكرَ الشيخ السّعدي في تفسيره للآية :

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص ١٢٧) دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ١٩٩١ م .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ [البقرة : ٢٦] أي : أيَّ مثل كان ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ لاشتمالِ الأمثال علىٰ الحكمة ، وإيضاح الحق ، واللهُ لا يستحيي من الحق ، وكأنَّ في هذا جواباً لمن أنكر ضربَ الأمثالِ في الأشياءِ الحقيرةِ ، واعترضَ علىٰ اللهِ في ذلك ، فليس في ذلك محل اعتراض ، بل هو من تعليم اللهِ لعباده ، ورحمته بهم ، فيجب أن تتلقىٰ بالقبول والشكر[1] .

ـ إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يستنكفُ ولا يمتنعُ عن أنْ يضربَ أي مثلٍ كان ، بأي شيء كان ، صغيراً كانَ أو كبيراً ، ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، فسواء كان هذا المثل بالبعوضة ، أو بما هو دونها في الحقارة والصِّغر ، فكما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضربِ المثل بها .

ـ قال قتادة رحمه الله : إنَّ اللهَ لا يستحي من الحق أن يذكرَ شيئاً ما قلَّ أو كثُر ، وإنَّ اللهَ حينَ ذكرَ في كتابهِ الذُّبابَ

---

(١) تفسير السعدي (ص ٢٩) .

والعنكبوتَ ، قال أهلُ الضلالة : ما أرادَ اللهُ منْ ذكر هذا ، فأنزل الله : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[1] [البقرة : ٢٦] .

ـ وقال ابنُ كثير في معنىٰ الآيةِ السابقةِ ما مفادُه وملخصهُ منْ أقوالِ الصحابةِ والتابعين والعُلماء والمفكرين : قال الربيعُ بن أنس : هذا مثلٌ ضربه اللهُ للدنيا إذ البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنتْ ماتت ، وكذلك مثلُ هؤلاء القوم الذين ضربَ الله لهم هذا المثل في القرآن ، إذا امتلؤوا منَ الدُّنيا رياً أخذهمُ اللهُ تعالىٰ عند ذلك .

ـ وقال مجاهد في تفسير الآية : الأمثالُ صغيرُها وكبيرُها يؤمنُ بها المؤمنون ، ويعلمونَ أنَّها الحقُّ من ربهم ، ويهديهم الله بها[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير (ص ٨٤) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ٨٤ و ٨٥) ملخصاً ؛ وانظر إن شئت تفسير القرطبي والخازن والبغوي وغيرها من التفاسير .

ـ ونفهمُ من قوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . أنَّ الأمر هنا شرعيٌّ ، ولو كان يتوهم أنَّ في تركه أدباً وحياءً ، فإنَّ الحزمَ كلَّ الحزمِ ، اتباعُ الأمر الشرعي ، وأن يجزمَ أنَّ ما خالفه ليسَ من الأدبِ في شيء ، واللهُ تعالىٰ لا يستحيي أن يأمرَكم بما فيه الخير لكم ، والرفق لرسوله كائناً ما كان .

ـ فالله عَزَّ وجَلَّ حييٌّ كريم ، وصفاته لا تشبهُ صفات البشر ؛ أخرج الإمام أحمد وغيره عن سلمان رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « إنَّ الله تعالىٰ حيي كريمٌ ، يستحي إذا رفعَ العبدُ إليهِ يديه أن يردّهما صفراً ، حتىٰ يضعَ فيهما خيراً »[1] .

* * *

(١) أخرجه أحمد (٥/٤٣٨) ، وأبو داود في الصلاة برقم (١٤٨٨) ، والترمذي في الدعوات برقم (٣٥٦٦) ، وابن ماجه في الدعاء برقم (٣٨٦٥) ، والحاكم (١/٤٩٧) .

الفصل الثالث

اللهُ الحييُّ

الحياءُ صفةٌ يحبُّها اللهُ عَزَّ وجَلَّ ، والحياءُ أيضاً من صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، والحياءُ صفةٌ يتحلّىٰ بها المؤمنُ ، أما حياؤه عَزَّ وجَلَّ ؛ فهو وصفٌ يليقُ به ، وليس حياؤه كحياءِ المخلوقين الذي هو تغيُّرٌ وانكسار يعتري الشخصَ عند خوفِ ما يُعاب أو يُذم ، بل هو تركُ ما ليس يتناسبُ مع سعةِ رحمتهِ وكمالِ وجوده ، وكرمه وعظيم عفوه وحلمه ، فالعبدُ يجاهرُه بالمعصية ، مع أنَّه أفقرُ شيءٍ إليه ، وأضعفه لديه ، ويستعينُ بنعمهِ علىٰ معصيته .

ـ ولكنَّ الله عَزَّ وجَلَّ مع كمالِ غِناه ، وتمامِ قدرتهِ عليه يستحي من هتكِ ستره وفضيحته ، فيستره بما يهيِّئه له من

أسبابِ الستر ، ثُمَّ بعدَ ذلك يعفو عنه ويغفر ، كما جاءَ في الصحيحِ عن ابنِ عمر رضي الله عنهما : « إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يدني المؤمنَ فيضعَ عليه كنفهُ ، ثُمَّ يسأله فيما بينه وبينه : ألمْ تفعلْ كذا يوم كذا ؟ حتىٰ إذا قرّره بذنوبه ، وأيقنَ أنَّه قد هلكَ ، قال له : سترتُها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرُها لك اليوم »[1] .

ـ وكذلك يستحي سبحانه وتعالىٰ من ذي الشيبةِ في الإسلام أنْ يعذبه ، ويستحي ممن يدعوه ويمدُّ إليه يديه أنْ يردّهما خاليتين ، وهو من أجلِ أنَّه حيي ستير ، يحبُّ أهلَ الحياءِ ، والستر من عبادهِ ، فمنْ سترَ مسلماً ، سترَ اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرة ، ويكرهُ المجاهرةَ بالفسوقِ ، والإعلان بالفاحشة .

ـ قال ابنُ قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في منظومة له ومنها :

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٦٦) ، ومسلم في السلام (٢١٧٦) .

وهو الحييُّ فليسَ يفضحُ عبدَه عند التّجاهرِ منه بالعصيان
لكنّه يُلقي عليه ستـرهُ فهو الستيرُ وصاحبُ الغُفران

ـ يقول الشيخُ عبد الرحمن السعدي في تعليقٍ له علىٰ هذين البيتين : وردَ في السُّنةِ وصفه تعالىٰ بالحياءِ ، كقوله ﷺ : « إنَّ اللهَ حييٌّ يستحي من عبده إذا مدَّ يديه إليه أن يردهما صفراً »[1] . وكقوله عليه السلام في شأنِ النَّفرِ الثلاثةِ الذين وقفوا علىٰ مجلسه : « أما أحدهم فأقبلَ فأقبلَ اللهُ عليه ؛ وأمّا الآخر فاستحيا فاستحيا اللهُ عَزَّ وجَلَّ منه ، وأمّا الثالثُ فأعرضَ فأعرض اللهُ عَزَّ وجَلَّ عنه »[2] .

ـ إنَّ من أمقتِ الناسِ عند اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، مَنْ باتَ علىٰ معصيته والله يسترُه ، ثُمَّ إنَّ الرجل يصبحُ فيكشفُ سترَ اللهِ عليه ، ويفخر بالمعصيةِ ، ولا يستحي من ذكرها ، وقد توعّد اللهُ الذين يحبون أن تشيعَ الفاحشةُ في صفوف

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

المؤمنين ، توعّدهم بألوان وأليم العذاب ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور : ١٩] .

ـ وكذلك نجدُ الصورةَ نفسها في الحديثِ الشريف ، حيثُ يقولُ ﷺ : « كلُّ أمتي معافىٰ إلا المجاهرين ، وإنَّ من المجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملاً ثم يصبحُ وقد سترَ اللهُ عليه ، فيقول : يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد باتَ يسترهُ ربّه ، ويصبحُ يكشف ستر الله عليه »[1] .

ـ إنَّ منَ الناسِ مَنْ يفعلونَ السُّوءَ سراً ، ويصبحون وقد سترهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ ، فيأتونَ ويتحدثونَ بين النّاس بما اقترفوه من إثم ؛ وربما يتفاخرون بذلك ، وهذا قِحةٌ وتهتُّك ، وهو يشبهُ المجاهرةَ العلنية بفعل السُّوء ، ولا يكونُ منْ ذي الحياء .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب برقم (٦٠٦٩) ، ومسلم في الزهد والرقائق برقم (٢٩٩٠) .

ـ إنَّ مَنْ لا حياء عنده هانَ عليهِ أنْ يجاهرَ بما فعلَ منْ قبيح المجون ؛ والمجونُ صفةُ مَنْ لا خلاقَ له ، ولا فضيلة عنده تردعه وتمنعه عن القبائح .

ـ سُئِلَ أحدُ أهلِ المجونِ ممن طرحَ الحياءَ جانباً : كيف أصبحت ؟!

قال : أصبحتُ لا فرقَ عندي مدحني الناسُ أو ذموني .

فقال له السائل : لقد استرحتَ من حيثُ تعبَ الكرام .

ـ أمّا المرءُ الذي يستحي بخطيئته ، ويتستّر فيها ويتوارىٰ ، ويعلمُ أنَّ اللهَ حييٌّ ستيرٌ يحبُّ الحياءَ والستر ، ولا يتحدثُ بها أمام النّاسِ ، فإنَّ العافيةَ مرجوةٌ له برحمةِ اللهِ وتوفيقه ، لأنَّ حياءَه الذي منعه منَ المجاهرة ، وجعله يتوارىٰ ويتستر ، عنصرٌ خُلقيٌّ كريم ، سيأخذُ بيده إلىٰ مقام الاستحياء من اللهِ ، فيتركُ القبائحَ كلّها في سرّه وعلانيته ، لأنَّه يعلمُ عِلمَ اليقينِ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ مطّلعٌ عليه ، مراقبٌ له ، وسيحاسبهُ علىٰ أعماله حساباً عادلاً .

* * *